

تأييد لاقتراح « الرسالة »

للأستاذ علي الطنطاوي

« . »

لكل ذي قلب ، ولغة القلوب واحدة وإن اختلفت الألسنة
وتعددت البلدان ، فما يليق بأمة لها شعور وكرامة وعقل ، أن
تجهل هذه الكتب ولا هؤلاء الرجال .

أكتب هذا تعليقاً على مقالة الأستاذ الزيات في العدد الماضي
من الرسالة . وإذا كتب الأستاذ في موضوع لم يدع فيه ركناً
يعرض له بالوصف مثلي ، لأنه يوفى فيه على الغاية ، ويبلغ في
الإجادة فيه النهاية ، وما علفت مستدركا بل مبدأ ومردداً ،
وليكون لي في هذه الدعوة المباركة نصيب .

ولقد عادت بي مقالة الأستاذ إلى أبي الخوالي حين قرأت
قصة (رفائيل) أول مرة ، بإذن من أستاذنا شيخ أدباء الشام سليم
الجندي ، وكان يحرم علينا أن نلم بشيء من الأدب الحديث أو
ننظر في جريدة من الجرائد ، قبل أن تتمكن من الأدب القديم ،
ونألف الصياغة العربية ، وتستقيم ملكاتنا على طريق البلاغة
السوية خشية أن تدخل جرائم العجمة إلى أسلوبنا ، وأن يفشو
الضعف في بياننا ، فلما سألته عن قصة رفائيل غداة صدورهما هل
أفروها ؟ نظر فيها ثم أذن لي بقراءتها لأنه رآها بليغة الأسلوب ،
صافية الديباجة ، سليمة اللغة ، سامية البيان ، فكانت أول
ما قرأت من الأدب الحديث بعد (النظرات) ولا والله لا أستطيع
أن أصف أثرها في نفسي ولا في خيالي ولا في قلبي ، ولا أملك
حتى الإلمام بذلك إلاماً ، لأنه شيء فوق الوصف وإنما أعترف
أنها أحد المصنفات القلائل التي كانت غذاء أدبي من الكتب
الجديدة ، بعد أن غديته بأمهات كتب الأدب القديم . وقرأت
(آلام فرّ) فكان لها مثل ذلك الأثر؛ ثم انتقدت هذا اللون من
الأدب فلم أجده ؛ ثم وجدت شبهه في مثل (عطيل) مطران
و (مرجريت) زكي و (فاوست) عوض وإن كانت هذه
من قماش وتلك من قماش ، وإن اختلف النسج وتغيرت الديباجة ،
وأمثال (تأين فوثير) التي نقلها (النفوطي) إلى العربية بقلم
أحسب لو أن (هوغو) كان عربياً ما كتبها بأبلغ منه ؛ كما أن
لامارتين لم يكن ليكتب قصته ولا جوت كتبه ، خيراً مما كتبها

ما تفتأ الأتكار تحمل وتلد ، وما تنى المطابع تناقى الولائد
وتلفها بالثياب ، وتخرجها للناس كتباً ، فلا يدري القاري من
كثرتها ماذا يقرأ ، ويحار المرء من تعددها ماذا يختار . ولكن
المبقرى في الكتب كالمبقرى في الناس ، لا تراه الدنيا إلا مرة
واحدة في الدهر الطويل ، ولا يكون إلا واحداً في ملايين . أحص
السابقين من العباقرة في الأم كلها تجدهم قد جمعهم لقلتهم سجل
واحد ، وضمت أسماءهم صحيفة ، ثم اذكر كم من ملايين البشر
عاشوا معهم ، ونفسوا الهواء الذي كانوا يتنفسونه ، وأكلوا من الطعام
الذي كانوا يأكلونه ، ثم طوتهم الأيام ، ونسيهم الناس ، فكأنهم
ما ولدوا ولا عاشوا ، بل ربما كان في هؤلاء النسيين بحق ، الجمهوريين
من كانت له دنيا أعرض من دنيا أولئك المبقرين ، وكانوا يتمنون
الأقل منها فلا يصلون إليه ، وكانت لهم منزلة وكان لهم سلطان ،
ولكن الزمان عصى الحقائق ، وماز الأباطيل ، فإذا ذلك السلطان
زبد يذهب جفاء ، وإذا المبقرية تمكث في الأرض لأنها تنفع
الناس . وكذلك الكتب ، فرب كتاب يطبل له ويرمر ، ويقام
له ويقعد ، وآخر لا يدري به أحد ، يبطل الزمان الأول ، ويبقى
الثاني خالداً . ولقد قرأت في بعض ما قرأت من شعر الإفرنج كلمة
أحسبها لثيوفيل غوتيه يقول فيها مخاطباً الملك العظيم لويس الرابع
عشر : « لقد نسي التاريخ الآلى التي كانت في تاجك أيها الملك ،
ولكنه لا يزال يذكر الرقع التي كانت في حذاء كورني » . كما
نسى التاريخ ألوف الأمراء والملوك إلا ما خلده شاعر حين أمر
اسمه علي لسانه في قصيدة من قصائده .

هؤلاء الرجال المبقرين ، وهذه الكتب المبقرات ، التي
لا تقوى حدود البلدان ، ولا فوارق اللسان ، على إبطال فتتها ،
وإذهاب روعتها ، هذه الكتب (قدر مشترك) بين أبناء الشعوب
المتقدمة كلها ، ليست لشعب ولا لجيل ، لأنها حديث القلوب فهي

ونحن اليوم في أشبه العصور بعصر المنصور والمأمون ، أمة كانت منثرة منطوية على نفسها ، ثم اتصلت بأمم غيرها لها مدنيات ولها علوم ، فإذا استمرت على عزلتها علت عليها تلك الأمم بملها وقوت ، وإن تعلمت أسلحتها لفهم علومها ، أضاعت لسانها وعصبيتها : فلم يبق إلا أن تنقل كتب تلك الأمم إلى لسانها ، فتتراد به غنى في الأفكار وفي طرق التعبير ، ثم تفهمها وتسيغها وتضمها كما يقولون ثم تنشئ مثلها إنشاء .

ونحن في الواقع لا نستغنى عن الترجمة ولا نقل منها ، ولكننا نسي . الاختيار فندع الكتاب العبقري الفذ الذي يعد واحدا من مائة كتاب هي خلاصة آداب الأمم كلها وترجم الكتاب لا فائدة فيه . ثم سي . التعبير فلا تنقل هذه الكتب إلى العربية وإنما ننفع في مكان ألفاظها الأجمعية ألفاظا عربية ، ولا يقدر على الترجمة الصحيحة إلا متمكن من اللغتين ، بليغ في اللسانين ، يقرأ الفقرة ثم يفهمها ثم يدعها تخالط روحه وتصير كأنها له ، ثم يصير عنها لسانه ، ويرتبها بحال بيانه .

والأستاذ الزيات بوجه كلامه إلى معالي الأستاذ السهوري بك الذي عرفناه في بغداد ودمشق عالماً قبل أن نعرفه وزيرا . ونحن نعلم وجه الصواب في الأمر ولا نملك تحقيقه ، والوزراء على الغالب يملكون . ولا يعلمون . فلما جاء الوزير العالم الذي يعرف الحق ويقدر عليه ، كان موضع الأمل ، ومحل الرجاء ، فإذا ألهمه الله أن يفعل فقد أراد الخير لهذه الأمة على يديه .

بقيت كلمة للأستاذ الزيات ، هي أنه ترجم فكان أربع الترجمين ، فلماذا لا يكمل ما بدأ به ، ويترجم لنا قصة (غرازيل) ثم (جوسلان) ؟ وينتقل بعد ذلك إلى غير لامارتين من أسراء البيان ، وأئمة الأدب في كل لسان ؟ وما فيمن سيجمعهم معالي الوزير السهوري فيها أظن من هو أقدر على ذلك من الزيات واولى به .

الجواب عندك يا أستاذنا !

الزيات ولو خلقا عربيين من أين العرب وإلى حين أقروا اليوم هذه الروائع من أدب الغرب مترجمات في (روايات الجيب) مثلا أكاد أخرج من ثيابي غيظاً وغضباً لهذه المعاني الكرمات تجرى في هذه الكلمات ، وأسفاً على هذه المرائس الفاتنات تخرج في هذه الثياب الأخلاق الباليات . وأفكر لو أن الله قيض لقصة (ذهب مع الريح) مثلا أو (الفندق الكبير) أو (الأم) وأمثالها الكثيرات من عبقريات القصص العالمية التي ترجمها كتاب روايات الجيب ، ونشكرهم على كل حال على حسن اختيارها ، وبذل الجهد فيها ، إذ لم يدخروا في التجويد وسماً ؛ لكن البلاغة درجات ، والكتاب طبقات ؛ لو أن الله قيض لها قلماً لدناً قوياً ، لا يضعف فينكسر ولا يتقوى فيؤذى ، فترجمت بأسلوب عذب بليغ ، لا يصح من غير جمال فيجف ويجمد ، ولا يحمل من غير صحة فيميج ويبسل ، لكان منها لهذا الشأن مدرسة ، الله وحده يعلم كم كانت تخرج لهذه الأمة من كتاب . وليست العبرة في الترجمة بنقل المعنى الجميل للقصة بل بنقل التفاصيل الفنية الدقيقة والصناعة الناعمة ، وطريقة عرض الفكرة ، وأسلوب تصوير المشهد . ولو أن المعنى الجميل هو المقصود للخصت قصة يوسف مثلاً في كلمات وضاع إيجاز المودة وجمالها الإلهي ، ولكانت كل قصص الحب في الأدب متشابهة لا تخرج عن أن رجلاً أحب امرأة حباً عاطفياً أو جسمياً ، فوصل إليها أو حيل بينه وبينها ؛ فهذه أنواع أربعة للقصص النرامية ينشأ منها أربع قصص فقط ويكون الباقي كله لتوا . مع أن في كل قصة جواً خاصاً بها ودنيا لها وحدها ، لا تنفي في التمتع الروحية بها قصة منها عن قصة ، وما ذاك إلا لاختلاف الدقائق والتفاصيل ، ولا يظهر هذه الدقائق والتفاصيل إلا قلمٌ بليغ ، بصير بمواقع الكلام ، عارف بأوجه الدلالة في الألفاظ ، له الحاسة الخفية التي يفاضل فيها بين الكلمات ويحسن انتقاءها ، إذ رب كلمتين بمعنى ، وبين إحداهما والأخرى مثل با بين البلاغة والمعنى . ورب كلمة في لسان لها جوة ولها مدلول ، وتحيط بها ذكريات عند أهل ذلك اللسان ، لا يمكن أن تجيء بها مرادفها في اللسان الآخر ، ومن هنا علت بعض النصوص كالقرآن مثلاً عن الترجمة واستحال أن تنقل إلى غير لسانها .